اسهامات جاك بيرك في الانثربولوجيا المغاربية

د. الزهرة قريصات- جامعة تيارت- الجزائر

الملخص :

يعتبر بيرك انثربولوجيا مغاربيا من الطراز الأول فدراساته النظرية وتجربته الإدارية والمهنية ومعايشته للمجتمع المغربي والجزائري تجعل منه انثربولوجيا باستحقاق من خلال كتاباته المختلفة التي تأرجحت بين المعرفة والسلطة ،بين النظري والعملي، بين البنية والحدث، بين الفردانية والعالمية .والمتصفح كرونولوجيا لكتابات جاك بيرك يجد أن كتاباته لم تتمحور حول الإسلام فقط بل تجاوزتها إلى عرض معايشته كملاحظ وفاعل في الحياة الاجتماعية وتأثرا واضحا باللغة والدين والعادات والهوية.

إن القراءة في "Opéra Minora" تبين بعمق أن جاك بيرك كان انثربولوجيا متميزا ترك تراثا غنيا في دراسة المغرب الكبير مستخدما وسائل البحث الانثربولوجي المختلفة بدقة متناهية، وفي هذه المداخلة سنتناول الإسهام التنويري لجاك بيرك في إبراز الجانب الانثربولوجي في دراسة المغرب العربي وأهم المحطات الأكاديمية والمنهجية.

Abstract :

Berk is, anthropologically talking, a typical Maghrebian. His theoretical studies and administrative and professional experience, and his life in the Moroccan and Algerian societies made of him a worthily anthropologist throughout his different books which dealt with knowledge and power, theory and practice, between the structure and the event, between the individualism and the worldwide. The one who browse Berk's books chronologically finds that they don't focus only on Islam but extending to living it as both an observer and actor into the social life. He also was influenced with all of the language, the religion, the customs, and the identity of the region.

When reading 'Opera Minora', it would be obvious to notice that Jacques Berk used to be a distinct anthropologist who left a great heritage in the study of the Great Maghreb behind him utilizing the acute and infinite various anthropological research tools. In this intervention, we will deal the enlightening contribution of Berk in demonstrating the anthropological aspect in studying the Arab Maghreb and the main academic and methodological stations.

مقدمة:

من خلال تقلد بيرك لمناصب عدة في الإدارة المغربية سمحت له بالاحتكاك المباشر مع المجتمع ودراسته عن قرب في علاقته مع دينه وعلاقة الأفراد مع بعضهم وقدم لنا مقالات عدة في الانثربولوجيا القانونية في المغرب الكبير ثم تاريخ وانثربولوجيا المغرب الكبير والعلوم الاجتماعية والاستقلال وقد جمعها وقدمها كل من بالترتيب: Alain MAHE ، Gianni ALBERGONI، François POUILLON

هذه الأجزاء تجمع المقالات والمداخلات التي لم تنشر- إلا مرة واحدة مع تبيان تطور فكر الرجل في التاريخ، بحيث تم تقسيم هذه المقالات وتجميعها في إطار تقسيم مفاهيمي وكرونولوجي في نفس الوقت .

الجزء الأول: الدراسات الأنثربولوجية والقانونية بالمغرب: وفيها برزت مفاهيم العقد الرعوي لمنطقة سيدي عيسى- وبني مسكين، والمشاكل الأوليّة للسوسيولوجيا القانونية ومنهجيتها في شمال إفريقيا، كما جمع وعلق على الكثير من الوثائق المتعلقة بالأعراف الخاصة بالبيع والشراء بسكساوة، وأساسيات نظام "الحبوس".

الجزء الثاني: الدراسات التاريخية الاجتماعية (دراسة موسعة للانثربولوجيا التاريخية بالمغرب) قدم دراسة حالة للمدينة والجامعة وتاريخ مدرسة فاس. تاريخ وانثربولوجيا المغرب الكبير وفيها تناول بالبحث دراسة حالة "السوق"، بنية جماعة "الشلوح" و"امنشانوت"، "الرحالة" من خلال طرح مفاهيم القبيلة والعرش، سيرة ذاتية لقاض ريفي، مفاهيم المدينة والمدن الجديدة والقصديرية، إعادة قراءة في العادات والتقاليد. العلوم الاجتماعية والاستقلال وتحديث الفلاح المغربي وتطوير الفرد، التحديث الريفي، قوانين الفرد والاندماج الاجتماعي، مفاهيم الاستعمار والاستقلال بمفاهيمه الحديثة، الجامعة والعالمية، من اجل انتقال أحسن للمعارف والقيم، سوسيولوجيا الانتقال المرحلي، الهوية الجماعية وموضوع التاريخ .

الجزء الثالث : هذا الجزء يضم النصوص التي تبين بيرك، كموظف استعماري، خبير دولي، أستاذ ومستشار ملكي، محلل لمفهوم وآثار العولمة في المجتمع المحلي المغربي.

قام بيرك بالإشراف على أطروحات عديدة في الدكتوراه، عمل لصالح اليونسكو كخبير تربوي في "سير الأعيان" بمصر ولبنان، عمل مستشارا تربويا للبلاط بالمغرب من ديسمبر 1981 إلى جويلية 1982، وكلف بمهمة التعاون العلمي مع العالم الثالث. ترجمة القرآن يعتبر هاما لبيرك والذي بدأه في 1982 وأنهاه 1995- طبعة أولى في 1990-.ومنه يمكن أن نلخص مسار بيرك في ثلاثة مراحل[1]، الأولى مرحلة الشباب (1934-1953) والتي مثلت بالنسبة إليه مسيرة مهنية تأرجحت بين الإدارة الاستعمارية والوصف الدقيق للممارسات والنشاطات الرعوية والفلاحية وقوانينها، المرحلة الثانية والتي امتدت إلى بداية السبعينات والتي ميزها التوقف عن الدراسات الميدانية، والتي ميزتها تجاذبات بين النقد التاريخي والمحاولات المتشددة، وأخيرا مرحلة الشيخوخة والتي ميزها التوجه نحو الدراسات الإسلامية والعربية .

الأهداف: هذه الدراسة تهدف إلى:

1* التعريف بإسهامات جاك بيرك من خلال قراءة في كتاب اوبرا مينورا بمكتبة بيرك.

2* جرد المواضيع التي درسها بيرك خلال تواجده بالمغرب العربي لتمكن الباحثين من الولوج مباشرة إلى الموضوع المراد دراسته وبهذا توفر الوقت والجهد.

3* التعريف بمنهج بيرك في دراسة المغرب والأدوات البحثية التي اعتمد عليها.

4* التعريف بمكتبة جاك بيرك بفرندة والتي تضم تراثا هاما من مكتبته الشخصية وأرشيفه حتى يتمكن الباحثون من المبادرة باستثماره علميا .

الجزء الأول:

جمع المقالات وبحث فيها "ألان ماهي Alain MAHE"، في تقديمه للكتاب يصف بيرك بأنه "أستاذ الدراسات العربية والإسلامية "[2] ومن أكبر ما أنجبت فرنسا من العلماء (1910-1995)، ترك تراثا مكتوبا باهرا من 43 كتاب وأكثر من 200 مقال خلال

50سنة من البحث، معظم هذه المقالات موجودة وموثقة ولكن البعض منها فقد، عاش بيرك حياته بين المغرب والجزائر (1910-1953) - ما عدا سنتين قضاهما بجامعة السوربون -، هذا الكتاب يجمع معظم المقالات والمداخلات التي لم تنشر- إلا مرة واحدة. ويجمع الجزء الأول كل الدراسات الانثربولوجية القانونية التي كتبها بيرك عندما كان موظفا إداريا استعماريا بالمغرب، منذ توظيفه بالإدارة الاستعمارية في 1934 اهتم بيرك خاصة بتقاليد العقود التجارية والفلاحية بالمغرب بسبب تدرجه في مناصب سمحت له بالبحث في مجال أنثربولوجيا القانون .

- **من الإدارة الكولونيالية إلى انثربولوجيا القانون:**

عمل بيرك ما يقارب 20 سنة في الإدارة الاستعمارية، وفي هذه المرحلة بالذات بدأت بحوثه في الأنثربولوجيا القانونية، وكل تحويل له كان بداية لبحث جديد[3] :5 كتب و5 مقالات أساسية في الأنثربولوجيا القانونية اعتمد فيها على دراسة النصوص القانونية، بعد أطروحته مباشرة تخلى تماما عن هذا النوع من البحث لكنه احتفظ بالنصوص والتي وظفها فيما بعد في دراسة التاريخ الاجتماعي والديني مثل أرشيف القضاة في الريف.

أولا . الانثربولوجيا القانونية بالمغرب Anthropologie juridique du maghreb

رقم المقال	عنوان المقال	سنة ومجلة النشر
01	*Aspects du contrat pastoral A Sidi-Aissa*	*Revue Africaine, LXXIX, 1936 :899-944*
02	*Contribution à l'étude des contrats nord-africains(les pactes pastoraux Beni Meskine)*	*Alger,Typo-Litho & Carbonel,95p,1936*
03	*Devoirs du maitre :Rétribution du Berger*	*« Chacun de vous est un berger, et chacun de vous est comptable de son troupeau »*
04	*Etude d'histoire rurale maghrébine -Individualisme et solidarité agraires dans le Rharb -Le champ*	*Tanger et Fés, Les éditions internationales,212 p.1938*

	-Le seigneur,le grand domaine ,et le groupe paysan *-La collectivité rurale* *-Le khammés* *-Une page d'histoire rurale*	
2- رفع الالتباس في شركة الخماس	*Un document sur l'histoire rurale maghrébine* *1-Un défenseur marocain du khammessat* *2-De la lumière sur la société du khammessat*	*05*
Annales d'Histoire économique et sociale,51,1938,193-207	*Dans le Maroc nouveau :le rôle d'une université islamique*	*06*
Rabat, Moncho,166 p,1940	*Les Nawazil et muzara'a du Mi'yar Al Wazzani* *-la part de la coutume, ou l'africanisation* *-les sources du d'AL Wazzani* *-la compagne maghrébine d'après AL Wazzani*	*07*
Rabat; M. Le forestier,147 p .1944	*Essai sur la méthode juridique maghrébine* *-Changement d'optique* *-Primauté de la technique dans le FIKH* *-Sur la théorie de l'ORF et de l'AMAL* *-Vers l'IJTIHAD* *-L'avenir du fikh (Tajdid)* *-Le « Tajdid al-fikh » selon un juriste marocain moderne* *-Moyens de renouvellement*	*08*
Revue Africaine, XCM ,1948 :363-402	*Documents anciens sur la coutume immobilière des Seksawa*	*09*
	Ville et université Aperçu sur l'histoire de l'école de Fés *-les origines*	*10*
Etude de traduction annotée, Alger,	*Abu Ali al-Ma'dani (al H'asan ibn Rah'al) Tad'min aç aç-çunna*	*11*

Carbonal, XXVII-88 P ?1949		
Bulletin des études Arabes,41,1949 :8-11	*Le droit du sous*	*12*
Revue Algérienne, Tunisienne et Marocaine de Législation et de Jurisprudence, mars-avril 1950 :1-11	*Les A jwiba d'Al-Abbassi*	*13*
Studia Islamica, 1,1953 :137-162	*Problèmes initiaux de la sociologie juridique en Afrique du nord*	*14*
Revue Algerienne,1-2,1953 :1-8	*Quelques documents sur le droit répressif ancien du Haut-Atlas*	*15*
Encyclopédie de l'islam,nouv,éd,vol2,1956 :439-441	*Djama'a*	*16*
In Normes et valeurs dans l'islam contemporain, Paris, Payot, 1966 :132-144	*Deux cas de compromis entre droits universalistes et réalités locales*	*17*
In l'Ambivalence dans la culture arabe, Paris, ANTHROPOS ?1967/2 32-252	*L'ambiguïté dans le Fikh*	*18*

الجدول رقم 2 : مقالات الجزء الأول "أوبرا مينورا"[4]

ثانيا. يقدم بيرك العقد الرعوي في سيدي عيسى (نموذج من دراسة حالة):

الموضوع	ملاحظات
العقد الرعوي في سيدي عيسى	الانثربولوجيا القانونية
-دوار بني مسكين مقسم إلى جماعات أو عظم "Adham" جمع بيرك الأمثال الشعبية باللغة العربية وترجمها إلى	- قدم ملاحظات عن الجبرية الاجتماعية في شمال افريقيا : -واجبات الراعي ومسؤولياته. -الخلط بين المدني والقانوني (القانون والتقاليد) -مشاركة الراعي في دفع الضرائب

الفرنسية وبيّن دور هذه الأمثال في تنظيم الحياة الاجتماعية: -الوزيعة: ناكل طعمك، تاكل طعمي -الراعي :عند الشكوى "ما يكسيني ما يسبطني "ويسقطها بيرك على النساء في الشكوى من أزواجه. -ولد العام عام (حق السارح)	-السرقة و العقاب إلى أن يثبت العكس -الخسارة (موت رأس الغنم،سببه ونوع المرض وتبرير ذلك). -شروط العقد بالربع - يقدم السيد مقدارا من المال صارمية çarmia في الجزائر مصحوبة بالقمح أو التمر، الملح، ويتم هذا قبل موسم المحاسبة ليتمكن الراعي من تأمين معاشه ويسمى أيضا"السلف" ويتم ذلك أمام القايد "بوشافة ". -في المغرب : -فسخ عقد العمل يؤدي إلى السجن حسب قانون 25 جوان 1927 المعدل بمقرر 315 الصادر في 12 أوت 1913: -يستفيد الراعي من الحليب والصوف في نهاية الحول الرعوي "نهاية ماي" وتسمى "عزيلة" أو "منيحة" -يأخذ الراعي ثمن عمله بالنسبة وتسمى "مرابع" سارح بالربع" ربعات ". -هذا النوع من القوانين يخص بني مسكين وما تبعها من بني عمير، بني موسى، ورديغة، زمور، الدوخالة، واد الزام، ومنطقة واد العبيد.... -واجبات الراعي : -المسؤوليات (التفريط) -الضرائب(المشاركة في دفع الضرائب مثل الخماس) -السرقة (عرض بيرك حوارات بين القايد و الرعاة عن السرقة، تقع مسؤولية اختفاء أو سرقة على الراعي فقط في حالة المرض أو الموت. -خرق العقد . -طبيعة العقد .

الجدول رقم 3 : يبين الجانب الانثربولوجي والانثربولبوجي القانوني في دراسة الحالة عند بيرك (نموذج)

الجزء الثاني : دراسات في تاريخ الريف المغربي:

1- الحقل (الوحدات الفلاحية، الوحدات الاجتماعية)

2- السيد و جماعة الفلاحين (العنف والحماية، الحبوس)

3- التكافل الريفي(رموز الحياة الجماعية: دراسة حالة لشاوية الصخرة - الأصول، السكن، التنظيم الفلاحي، الحياة الخاصة، المتزوجون والعزاب وخصائصهم، الجماعات الصغيرة، التناقضات الداخلية والخارجية، الذاكرة الفلاحية والقضاة).

4- الخماسة: خصائص الحياة الفلاحية مقارنة بالحياة الرعوية، مضمون المجتمعات الفلاحية، مقارنة بين النشاطات الشتوية والربيعية، الأصل التاريخي للخماسة.

5- فرنسا في المغرب وتطور القانون: الأرض، العمل، الراعي والخماس، الخلية الريفية، المغرب 1937(الانسلاخ، ميلاد الأنماط الجديدة للعمل، التحولات المجتمعية).

إن دراسة المجتمع الريفي والفلاحي وأنظمته بالمغرب والمحددات الأولية لتاريخ المغرب جعل بيرك يتساءل عن عدم تطور المغرب، وأسباب القطيعة بين المغرب والأصول الرومانية؟ ويصل إلى أن الدين "اجتماعي" يفقد قوته وبنيته بسبب البصمة القبلية.

الجزء الثالث: المغرب الجديد... دور الجامعة الإسلامية

تعتبر جامعة القرويين المركز التنويري أو القطب وقد كان دورها كبيرا في فاس وفي الحياة المعاصرة للمغرب. رأى بيرك أن جامعة القرويين تحقق المفهوم القانوني للكلمة "جامعة" تنظيم جماعي لآلاف الأفراد من معلمين وطلبة محليين وأجانب، هذا التنظيم الجامعي له مركز واحد هو مسجد القرويين الذي يعتبر النادي الثقافي، لأنه يختلف عن المدرسة والزاوية فهو يمثل تنظيما يحدد المهام، يضع برنامجا دراسيا وزمنيا، لديه ميزانية مصاريف، إنه يمثل نواة حقيقية لمنظمة عصرية، فهو يحقق بدقة متناهية معايير الفضاء المكاني والزماني للمدرسة والمؤسسة "[5].

- **معايير جامعة القرويين :**

1- تطبيق جاد ودقيق لبرنامج الجامعة.

2- خلق دورة من 4 سنوات تنتهي بتحصيل شهادة موثق مسلم .

3- خلق شهادة دراسات ثانوية .

4- خلق مكتبة الطالب .

5- تأسيس لجنة مؤهلة من أجل تقييم امتحانات القرويين مع المحافظة على الصلاحيات الدينية.

6- تأهيل الجامعة بطريقة حديثة من أجل إيواء الطلبة .

7- خلق نظام للتحفيزات ومنح الطلبة .

كل هذا كان يحدث في ظل تصارع لثلاثية: التقدم، الرجوع إلى السلف، الاستقلال.

عبر بيرك عن انبهاره بجامعة القرويين وتنظيمها وبرنامجها واصطفاء طلبتها، ولم يهمل دورها في اقتصاد مدينة فاس كمجتمع حضري دون أن تحيد عن خصوصيتها كمسجد (1937). "فالعلم المغربي التقليدي يمثل مجموعة المعارف والتقنيات الضرورية لأي مؤمن من أجل حياة دينية متكاملة، إنها الغاية من العلم"[6]

دراسة حالة : مدينة وجامعة: درس بيرك أصل بناء الجامعة وتطورها في إطارها الاجتماعي والسياسي، والثورة الصوفية داخل الجامعة قدم جردا لسلاسل التدريس بجامعة فاس[7]، قدم دراسة حالة معمقة لدور الجامعة كمركز تنويري بمعايير حداثية.

ملاحظات :

1- استعمل بيرك في هذه المقالات مصطلحات بالعربية وأعاد كتابتها بالفرنسية نطقا خاصة تلك التي تعبر عن العادات والتقاليد وهوية الأفراد والجماعات.

2- ذكر بيرك أسماء الأفراد ومناصبهم ومهامهم القانونية والاجتماعية.

3- بيرك عالم بالقوانين الإدارية ولديه القدرة على توظيفها في تحليله للعلاقات الاجتماعية.

4- الاستدلال بالأحاديث الشريفة في وضعيات عدة ولكن الترجمة في جلها حرفية وليست مفاهيمية.

5- عرض بيرك نصوصا مترجمة من العربية إلى الفرنسية حول الميراث بسكساوة قدرت بـ13 نصا حيث سمحت دراسة هذه الوثائق بدراسة بعض معالم تاريخ سكساوة.

6- جمع هذا الكتاب ما يقارب 30 دراسة كلها تصب في "الانثربولوجيا" والتي سماها بيرك "السوسيولوجيا" أم "التاريخية الاجتماعية" وقد تضمن أيضا مداخلات سياسية حول الاستقلال والتطور وكذا مقالات قانونية .

يصنف بيرك كباحث ميدان أو بالأحرى "إثني ميدان" وأيضا "مؤرخ ميداني"، لقد امتلك مهارات خاصة في ممارسة الملاحظة الاثنوغرافية وقد تقمصها بعمق من خلال "المعاش"، كما كان متحكما باستخدام الأرشيف ومدركا لقيمته المعرفية مهما كان بسيطا من خلال "قراءة جديدة" للنصوص، هذا التنوع في البحث جعل منه متخصصا في دراسة المغرب والعرب والإسلام .

الكتاب الثاني: تاريخ وأنثربولوجيا المغرب Histoire et Anthropologie du Maghreb

رقم المقال	عنوان المقال	سنة النشر
01	*Sur un coin de terre marocaine seigneur terrien et paysan*	*Annales d'Histoire économique et sociale 45,1937,227-235*
02	*La criée publique à Fès étude concrète d'un marché*	*(avec G.H Bousquet)Revue d'économie politique, 3,1940 :320-345*
03	*Structure agraire Des groupes cheleuhs du Haut-Atlas Occidental*	*Bulletin de l'association des géographes Français,210-211,1950 :116-120*
04	*Antiquités Seksawa*	*Hespéris,XL,1953 :359-417*
05	*Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut-Atlas occidental*	*Annales.E.S.C.1953 :289-314*
06	*« Vérité et poésie « sur Seksawa*	*Revue Africaine,1953 :131-146*
07	*Le problème démographique en pays berbère Etude sur les tribus de la région d'Imintanout –La population*	*Bulletin économique et social au Maroc, XVII :203-211*
08	*Qu'est-ce qu'une « tribu » nord-africain*	*Colin,1954 :261-271*
09	*Une exploration de la sainteté au Maghreb*	*Préface à E. Dermenghem, le culte des saints dans l'islam maghrébin 2° édit,1954*

Cahiers internationaux de sociologie, XIX ,1955 :59-65	*Les sociétés nord-africaines vues du Haut-Atlas*	*10*
Annales.E.S.C.1953 :296-324	*Cent vingt-cinq ans de sociologie maghrébine*	*11*
Revue Africaine,100,1956 :523-536	*Vers une étude des comportements en Afrique du nord*	*12*
Cahiers de Tunisie, 21,22,1958 :5-42	*Médinas, Villeneuves et bidonvilles*	*13*
Préface à E.F.Gautier, Mœurs et coutumes des musulmans, Paris, Club du meilleur livre,1959 :III-XIV	*En relisant Mœurs et coutumes*	*14*
Revue internationale des sciences sociales(Unesco),XI,1959 :501-518	*Nomades et nomadisme en zone aride*	*15*
In Etude d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi Provençal, Paris, Maisonneuve :471-494	*Ça et là dans les débuts du réformisme religieux au Maghreb*	*16*
Cahiers internationaux de sociologie, XIX ,1964 :51-78	*Le Maghreb d'hier et de demain*	*17*
In Contribution à la sociologie de la connaissance, Anthropos,1967 :35-70	*Problème de la connaissance au temps d'Ibn Khaldoun*	*18*
L'homme et la société ,11,1969 :146-158	*Vie sociale et variations de mode et de densité*	*19*
In Histoire économique du monde méditerranéen(1450-1650),Privat,1954 :123-135	*Des « Marranos »musulmans à Fès ?Notes de lecture sur un manuscrit anonyme*	*20*
In Abd el-Krim et la république du Rif,Maspéro,1976 :46-71	*Poussée nationale et démocratie à la base de la nation arabe.1915-1925*	*21*
Times literary supplement, 11 Décembre 1981	*Islam populaire et islam purifié*	*22*

الجدول رقم 3 : مقالات الجزء الثاني "أوبرا مينورا"[8]

هذا الكتاب تضمن ما يقارب 30 مقالا فيما نسميه اليوم الانثربولوجيا وكان يسميه بيرك سوسيولوجيا في حين نجد المقالات تنقسم بين توجهين التاريخ والانثربولوجيا، يعتبر المقال الأول علامة رمزية في تاريخ بيرك العلمي لأنه نشر في بداية حياته العلمية والمهنية في مجلة من أهم المجلات« les annales de Marc BLOCH & Lucien FEBRE » .

درس بيرك تاريخ سكساوة القديم وامتدادها الجغرافي وأصولها وتكوين سكساوة 1953، ما يميز بيرك أنه يدرس القبائل بلغتها ورمزيتها كما يأولها أفرادها، فتارة يستعمل اللغة العربية وأحيانا الأمازيغية ليعبر عن ظاهرة معينة، ويبحث في النصوص مهما كانت بسيطة ويعرضها كما هي أو يترجمها، يعتمد على الحوارات ومحادثات الأفراد، الأشعار، المراسلات الرسمية واللارسمية بين الأفراد وبين القادة. يبحث في الأنساب والأفراد المؤثرين في تاريخ المنطقة من أمراء وعلماء وقضاة دون أن يهمل الأفراد الفاعلين في الاقتصاد والحياة العامة.

يتتبع بيرك التحولات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة ويصوغها في إطار النصوص المتاحة، وبحكم معاشه وسط الأفراد لم يهمل بيرك المعاش اليومي للأفراد من أكل وطبيعته ونوعه وكيفية استخدامه وثمنه وطريقة جنيه وبيعه، ويربط كل هذا بالطبيعة الجغرافية للمنطقة، كما قدم ملاحظات حول التبادلات التجارية تبدأ من الفضاء المكاني للتبادلات وهو السوق بحيث قدم دراسة حالة مفصلة للسوق بالمزاد والجملة (سكساوة، دويران، مزودة، مراكش، حوز).

فالتبادلات التجارية بين الفقراء لم تكن تتم في السوق لأن ثمن كراء المكان يفوق ثمن السلعة في حد ذاتها (خشب التدفئة، الفحم ،الخروب ...) مما يجعل بيعها لا يدر ربحا، وحتى عملية نقله كانت تتم على ظهور النساء والأطفال، والأفراد لا يشترون ما هو مصنع إلا نادرا مثل (آلات صنع القهوة، كؤوس، صواني، قماش، الذهب).

كان يقدم بيرك تقاريره على شكل تحقيقات ميدانية يقوم بها مثل[9]:

1- الثراء والفقر في الجبل.

2- جمع النصوص والدراسة الاثنوغرافية :-نصوص تتعلق بأسطورة "لالا عزيزة"، رسالة مراهق يكتشف المغرب،أرشيف أمغار (القايد مخطار)، قصة أمينة أمازوز (قضية جنائية 1951)، طعن إداري (رسالة موجهة إلى الإدارة)، انتحار وانزيد ((قضية جنائية 1951)، مجموعة أشعار من هنا و هناك بلغتها الأصلية ومترجمة.

درس بيرك مجموعة من القبائل أو الاثنيات الصغيرة ومنها قبيلة "امنثانوت" ووجد أن ما يطبع هذه الجماعات البدوية هي البداوة المتأصلة في طبائعهم ومعاشهم منذ أزمنة بعيدة، فقد ركز بيرك ملاحظاته على دراسة حياة الأفراد وأعطاها تقسيما خاصا حسب 3 أبعاد[10]:

1- تقسيم وقت الري حسب الحاجة، وكان هذا المبدأ أساس الاقتصاد في المنطقة.

2- تقسيم مناطق الري إلى أحياء.

3- تقسيم الجماعات الكبيرة إلى جماعات صغيرة وهذه الأخيرة إلى عائلات.

الحياة في هذه الجماعات يسيرها نمط تقسيم الماء، كما قدم ملاحظات حول نفسية الأفراد خاصة عند الشلوح والذي تتميز بالتناقض النفسي بين العدوانية والفردانية في مقابل التكافل الجماعي .

*ظهر في هذا الجزء أيضا مواضيع متفرقة يمكن إجمالها فيما يلي :

1. ماهية القبيلة في شمال إفريقيا،نحو دراسة للسلوك في شمال إفريقيا .
2. المدينة :المدن الجديدة و المدن القصديرية (التريف والتمدن، التحولات في المكان، الحبوس)
3. الرحالة (من هم الرحالة ؟المضمون الايكولوجي، الطبيعة والثقافة، التحولات المختلفة التي تعرض لها الرحالة).
4. مغرب اليوم والغد:

تطور النظام المغربي، المجهودات والعوائق، القيم، البحث عن الذات والهوية .

الكتـاب الثالـث : العلـوم الاجتماعيـة والاسـتقلال Sciences sociales et décolonisation

سنة النشر	عنوان المقال	رقم المقال
Quotidien n nord-africain, 15,1939 :3-28	*Deux ans d'action artisanale à Fès*	*01*
(avec Julien Couleau) bulletin économique et soc Ial du Maroc,26, juillet1945 :1-12	*Vers la modernisation du fellah marocain*	*02*
Bulletin d'information du Maroc, octobre 1945 :5-17	*Vers la modernisation rurale*	*03*
Note inédite du 1° mars 1947	*Pour une nouvelle méthode politique de la France au Maroc*	*04*
Afrique,n°232,oct.nov,1949,19-23	*« le mariage d'Egalité Moncheikh »*	*05*
Correspondance d'Orient(Bruxelles),5,septembre196 1 :85-99	*Pour l'étude des sociétés orientales contemporaines*	*06*
Cahiers internationaux,n°118,1961 :53-61	*Colonisation, décolonisation Comment les Définir ?*	*07*
Tiers-monde,9-10,1962 :1-15	*Sciences et décolonisation*	*08*
Démocratie nouvelle,n°6,1962 :62-66	*Action culturelle française et décolonisation dans les pays arabes*	*09*
Studia Islamica,XVI,1962 :95-120	*Les arabes et l'expression économique*	*10*
In Dresh, Dumont & al, réforme agraire au Maghreb, Paris, Maspero, 1963 :51-68	*Le système agraire au Maghreb*	*11*
Revue de l'enseignement supérieur, 1,n°,1965 :33-40	*Quelque perspective d'une sociologie de la décolonisation*	*12*
In Berque &Charnay eds ,De l' impérialisme à la décolonisation ed, Minuit,1965 : 91-100	*Quelque perspective d'histoire économique coloniale*	*13*

In Berque &Charnay eds ,De l' impérialisme à la décolonisation ed ,Minuit,1965 :163-174	*Mise en valeur et milieu naturel*	*14*
In Berque &Charnay eds ,De l'impérialisme à la décolonisation ed, Minuit,1965 :476-501	*Nouvelles approches de la décolonisation*	*15*
Les cahiers de l'AUPELF, n°2,1967 :15-21	*Université et mondialité*	*16*
Etude et sociologie Tunisienne, 1,1968 : 11-27	*Décolonisation, interieur et nature seconde*	*17*
Etude et sociologie Tunisienne, 1,1968 :29-40	*Vers une sociologie des passages*	*18*
Esprit,2 Fevrier1969 :163-180	*Le développement et l'homme*	*19*
Perspectives (Unesco), VI(3),1967 :350-369	*Pour une meilleure transmission des savoirs et des valeurs*	*20*
In Identités collectives et relations internationales, Bruxelles,1978 :11-18	*Identités collectives et sujets de l'histoire*	*21*

الجدول رقم 5 : مقالات الجزء الثالث "أوبرا مينورا"[11]

في هذا الجزء تم تجميع أعمال بيرك حول الاقتصاد الاجتماعي وطريقة تفكيره ونظرته إليه، من خلال مجموعة مداخلات كتبها على شكل تقارير، مقالات كاملة، مداخلات في ملتقيات تقنية أو سياسية أكثر منها علمية، "يجمع هذا الكتاب ملفات ثرية ومعقدة فهو يتدخل كشاهد وكفاعل، وأخيرا كمحلل"[12].

كتب بيرك عن الاقتصاد في فاس وتتبع تطور الحرف والصناعات التقليدية، كانت تتقاسم هذه الصناعات في فاس 9 عائلات فقط في 1939، قدم بيرك جردا مفصلا لتطور هذه الصناعات "الحرفي منديل أو قنديل"، ومن خلال عمله في إدارة النشاطات السياسية قاد بيرك مشروعا طموحا لتحديث "قطاع الصناعات التقليدية" حيث كتب مقالات مهمة جدا بالتنسيق مع "جوليان كولو" وهو مهندس فلاحي عمل مع بيرك - وقد

كتبا معا 30 سنة فيما بعد دليلا سياحيا مهما عن بيرك وكولو أطلقا معادلة لتحديث القطاع الريفي والتي تضمنت إيحاءات هامة في ذلك الوقت.

في مقاله "من أجل انتقال أحسن للمعارف والقيم"، قدم بيرك هذا المقال في إطار برنامج لليونسكو حول "شروط انتقال المعرفة" في ديسمبر 1975 وامتد تأثيره في بحوث حول التربية إلى غاية 1980:

1. بحوث بالشراكة مع العالم الثالث 1983.
2. تربية الأطفال المهاجرين 1985.
3. الأقليات الجديدة في المدينة الأوربية 1989.

تعرف التربية كمنظمة ذات مفهوم خاص للعلاقات بين الشباب والراشدين من مكتسبات واتجاهات، ولكن بيرك يعرفها على أنها "التربية يجب أن تعرف أنها انتقال للابتكارات، وابتكار لهذا الانتقال"[13] والمشكل المطروح في المغرب أن هناك نسبة كبيرة من الرسائل التي تنتقل والتي تخص الحداثة تتعلق بما هو تقني وعلمي كلها غريبة عن هذا المجتمع، لأن وسائل، طرق ومناهج التحليل، اللغة التي تنتقل بها هذه المعطيات كلها غريبة عن هذا المجتمع ولا تعبر عن الهوية. مما يهدد صمود هذه الهوية والتي تتميز بمتناقضات:

1. الاستمرارية والتحول .
2. الذاتية والموضوعية .
3. الكلية، ولكن هذه الكلية قابلة للتفكك .

"لم يتشارك بيرك فكرة البرجوازية الاستعمارية باحتقار الشعب المغربي من خلال فكرة الجمع بين التقاليد والتخلف، بل من خلال خبرته تولدت لديه القناعة أن الثورة التقنية الاقتصادية لابد أن تحدث في البنيات الانثربولوجية الشخصية، الأصالة، التجذر"[14]

المنهج وأدوات البحث :

"المرحلة الأولى اعتمد فيها بيرك بدرجة كبيرة على الملاحظة الانثربولوجية، في حين اعتمد في المرحلة الثانية والتي تعلقت بدراسات التاريخ الاجتماعي والانثربولوجيا التاريخية والتي اعتمد فيه أكثر على المصادر المكتوبة، بين المرحلة الثانية والثالثة تغير توجه بيرك نحو مواضيع أكثر عمقا وحميمية، بين المؤمن والباحث المدقق والتي اعترف بعدها أنه أهمل بشكل ما دور الإسلام في العالم المعاصر"[15].

استخدم بيرك من خلال عمله كإداري بالمغرب منهج المعايشة الميدانية والذي يعتبر منهج الدراسة في الانثربولوجيا، جورج هنري بوسكي George-henri BOUSQUET يقول "انا لا اتفق مع بيرك في الجانب التقني، بيرك كان ضحية تعاطفه مع المجتمع المغربي"[16]، إن منهجيته في البحث لا تستجيب للمعايير الأكاديمية الخاصة بالمنهجية ما عدا في بعض الدراسات مثل (تحقيق كخبير في الجنوب الجزائري ومصر- كلفته به اليونسكو 1956)، هذا لا ينفي أن المناصب التي تقلدها بالمغرب سمحت له بدراسة المجتمع كمشارك بحكم معرفته باللغة العربية والإسلام وهذا يجعل منه بالمقابل ضليعا في مجاله.

فقد حقق بيرك شروط التحقيق الميداني والتي تتمثل في :

1. الاقامة.
2. تعلم اللغة.
3. التقنيات "الاستقصاء الاثنوغرافي، واستخدام هذه التقنيات نمط كتابة ونشر، وأخيرا دراسة الصورة بالمعنى الواسع (فنون تصويرية، صور فوتوغرافية).

"يخلص مالينوفسكي إلى التشديد على:

1. ضرورة التوثيق العياني، الاحصائي، من أجل الاحاطة بتنظيم القبيلة وتشريح ثقافتها.
2. جمع دقائق الحياة الفعلية ونمط السلوك الذي تعبر عنه.
3. مراكمة التقارير الناسوتية (الاثنوغرافية) من أخبار وتعابير نمطية، وأمور فولكلورية أوسحرية التي تمكن الباحث من استخلاص العقلية[17].

وقد حقق بيرك هذه المعطيات في دراساته الميدانية على طول سنوات معايشته للمجتمع المغربي، بحيث استخدم الأدوات التالية :

الملاحظة بالمشاركة: وهي الطريقة التي يتبعها الباحث الأنثروبولوجي، أي أن يقوم بأعمال تقوم بها الجماعة المدروسة من خلال الدخول إلى أدقّ التفاصيل في ممارسات أفراد هذه الجماعة، ، فالجدول الزمني للبحث الحقلي، يتضمّن التداخل بين الملاحظة بالمشاركة، والأساليب الأخرى لجمع المادة، ومن خلال هذه المعايشة الحيّة للمجتمع المدروس، والمشاركة الفاعلة في مناشطه، يكتسب الباحث مهارة في أداء هذه الأعمال، وقدرة على كتابة تجربته الشخصيّة فيها وممارسته لها. وهذا ما يؤدّي في النهاية إلى تصوير واقع الشعب المدروس، بتفصيلات تتّسم بالشمولية والدقّة.[18]

إنّ "الملاحظة بالمشاركة" هي إحدى خطوات الأثنوغرافيا خاصّة في المجتمعات الحضريّة، فالإثنولوجي بيرك استقر بالمغرب 20 سنة مما سمح له بالمشاركة في الحياة الإجتماعيّة بسمح له بتقمص المجتمع المدروس مما أدخله أحيانا في التعاطف والذاتية كما ذكرنا سابقا. وهذا ما عبرت عنه كاراتيني بقولها "إن الملاحظة بالمشاركة ليست مجرد الملاحظة للظاهرة عن بعد بل هو تقمص دور فعال في هذه الملاحظة حيث ترتقي مشاركة الباحث إلى التعايش مع الظاهرة المدروسة من خلال معايشة مجتمع البحث مع القدرة على الاحتفاظ بموضوعية التعامل معها، ويتوجب على الباحث أن يراعي زمان ومكان الملاحظة والمشاركة فالأمر "لا يتعلق فقط بالكتابة وأخذ نقاط وإنما في قراءة ما هو مكتوب، كيفية صياغة وبناء الظواهر الملاحظة، أو بالأحرى عملية التحليل تصبح مادة لردود أفعال جديدة قد تختلف عن تلك التي صيغت فيها"[19].

سير الحياة: تتلخص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة أفراد المجتمع بحيث يروي الأفراد ما حدث لهم خلال مسار حياتهم من الميلاد إلى لحظة المقابلة وقد "اعتمد الباحثون الانثربولوجيون في دراساتهم الحقلية في المجتمعات البدوية على تتبع تاريخ عدد من الأشخاص الذين اعتبروهم "نماذج" معبرة عن الثقافة البدوية والذين استطاعوا أن يكسبوا ثقتهم إلى الحديث معهم عن حياتهم الشخصية والأحداث التي عاشوها في المراحل العمرية

المختلفة"[20]، هذه النماذج تمكّن الباحث من التعرف على المعطيات التي تستدعي سنوات من المتابعة والتي يفيد تتبع سير الحياة في معرفتها وتحليلها كانتقال الخبرات من جيل إلى جيل وتحديد مقومات اختيار الأفراد للمركز الاجتماعي المتميز وتطور الشخصية وتميزها في الحياة البدوية كما تسمح هذه الطريقة بتتبع الروايات والأساطير التي تأسست عليها المجتمعات.و هذا ما ظهر في أجزاء اوبرا مينورا في مقالات عن "مذكرات قاض" وبعض الشعراء بسكساوة .

الطريقة الجينيالوجية: طور البنيويون هذه الطريقة واستخدمت في دراسة المجتمعات البدائية والتقليدية نظرا لطبيعة العلاقات فيها، وهي تتاسس على الدراسة البنيوية لشجرة النسب وتقسم هذه الطريقة الجماعات في المجتمعات المدروسة حسب أشجار الأنساب"الفردية" و"القبلية" و"العرفية". كما تسمح بالتعرف على الذات العائلية والتوترات الاجتماعية من علاقات وتفاعلات وسلوكات فردية واجتماعية على مختلف المستويات: الاقتصادية من خلال أسلوب الإنتاج وأنماط المعيشة والكسب والاهتمامات المهنية،السياسية من خلال تطور القيادة داخل الجماعة وتمثّل الزعامة، إن هذه الطريقة تسعى إلى فهم التوترات الباطنية من خلال ما هو ظاهري في العائلة ومنه في المجتمع.

وقد ساعدت نظريات كل من: جون بوان وجوناتان فريدمان وميشال غيران في فهم التنظيمات العائلية، ويعتمد الباحث الانثربولوجي على "أشجار الأنساب الفردية "أكثر لأنها تدرس بعمق العلاقات القرابية والنماذج الثقافية ومعاش الأسر وأنماط الاختيار الزواجي خاصة في المجتمعات القبلية حيث يهتم الأفراد بتتبع انتماءاتهم القرابية وتداول النماذج الثقافية عبر الأجيال و هذا ما ظهر في دراسة حاة القبائل عند بيرك .

أي أسلوب؟ إن أول ما يثير اهتمام القارئ لجاك بيرك هو أسلوبه، بحيث يظهر أسلوبا متميزا، يرى البعض أنه يتميز بالمشاركة الوجدانية تارة، واستخدام المفردات القديمة أحيانا أخرى، يتميز بالوفرة بالنسبة للبعض وبالزخرفة بالنسبة للبعض الآخر.

جورج هنري بوسكي George-henri BOUSQUET يؤكد أن كل من يقرأ بيرك يتفق على أن أسلوبه مضطرب و معقد في نفس الوقت[21]، مما صعّب عملية التلقي في

الخارج يضيف جلنر، ابحتى في فرنسا. بحيث لم يكن الطلبة متعودين على هذا النوع من الأسلوب من الكتابة بحيث رأوا أنه يتميز بالجمالية والذاتية أكثر .

خاتمة:

إن ميزة بيرك أنه لا يهمل أي جانب من جوانب الحياة العامة في دراسته للمجتمع خاصة المغربي لأنه قضى فترة عمله هناك، وهذه المعايشة الميدانية مكنته من القرب الشديد من الواقع ورغم كل الانتقادات التي قدمت إليه سواء في دراساته حول الإسلام والقرآن أو حول الحياة السياسية والتاريخية والاجتماعية إلا أن كتاباته تعتبر مرجعية هامة للباحثين في تاريخ المعرب في حقبة معينة .

لقد استطاع "اوبرا مينورا" أن ينقل إلينا تراث بيرك الانثربولوجي في جانبه القانوني والتاريخي والسياسي والاجتماعي من خلال استعمال أدوات البحث الانثربولوجي تتصدرها الملاحظة بالمشاركة كأهم الوسائل من خلال المعايشة الميدانية للمجتمع المغربي والجزائري.

*تعتبر مكتبة جاك بيرك بفرندة تراثا عالميا بمعناه الواسع لما تحويه من كتب ومصادر لجاك بيرك، أو لما كتب عنه طيلة حقبات متتالية، كما تحوي مخطوطات جمعها بنفسه في مراحل تنقله في المغرب والجزائر لذلك تعتبر مصدرا هاما للباحثين في فكر جاك بيرك.

*تحوي المكتبة الأرشيف الكامل لجاك بيرك والذي حفظ في أدراج حديدية وكرتونية تقدر ب92 علبة ، ويمنع الاطلاع عليه في حين أنه يعتبر ثروة فكرية وإنسانية لابد من إتاحتها للباحثين في فكر الرجل .

*إن هذا التراث الفكري تابع لوزارة الثقافة في حين كان من الأجدر أن تطالب به وزارة التعليم العالي حتى يتمكن الباحثون من استثماره على الوجه الأكمل فه لا يخص تخصصا واحدا بل إن تواجدي بالمكتبة لمدة أسابيع بين لي أن هذا التراث يمكن البحث فيه والتنقيب من طرف المؤرخين وعلماء الآثار وباحثو علم النفس وعلم الاجتماع والانثربولوجيا والقانون والسياسة وربما تخصصات أخرى لم تتح لي الفرصة لاستنباطها بسبب التركيز على البحث في "اوبرا مينورا"

المراجع والهوامش:

[1] Jaques BERQUE OPERA MINORA I op cit p 4

[2] Jaques BERQUE OPERA MINORA Anthropologie juridique du Maghreb 1 Présentation et notes d'Alain MAHé Editions Bouchene paris 2001 p 1

[3] Jaques BERQUE OPERA MINORA 1 op cit p 7

[4] Jaques BERQUE OPERA MINORA 1 op cit PP 1-563

[5] Jaques BERQUE OPERA MINORA1 op cit p 198

[6] Jaques BERQUE OPERA MINORA1 op cit p204

[7] Jaques BERQUE OPERA MINORA1 op cit p405

[8] Jaques BERQUE OPERA MINORA 2 op cit PP 1-480

[9] . Jaques BERQUE OPERA MINORA 2 op cit PP 44-50

[10] Jaques BERQUE OPERA MINORA 2 op cit PP 117

[11] Jaques BERQUE OPERA MINORA 3 op cit PP 1-353

[12] Jaques BERQUE OPERA MINORA 3 op cit p2

[13] . Jaques BERQUE OPERA MINORA 3 op cit PP 310

[14] Jaques BERQUE OPERA MINORA 3 op cit p4

[15] . Jaques BERQUE OPERA MINORA 1 op cit p -4

[16] Jaques BERQUE OPERA MINORA 1 op cit p 10

[17] جاك لومبار، **مدخل إلى الأنثروبولوجيا**، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البضاء المغرب 1997 ص 181-182

[18] عيسى الشماس . (2004). **مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)**. دمشق،2004 ص 97 (موقع اتحاد الكتاب العرب http://www.awu-dam.org

[19] صوفي كاراتيني **مركز البحث في الانثربولوجيا الاجتماعية و الثقافية** 22.23.24 نوفمبر 1999 ص 40

[20] محمد عبده محجوب **طرق و مناهج البحث السوسيو أنثربولوجي** دار المعرفة الجامعية 2005 ص 61

[21] Jaques BERQUE OPERA MINORA 1 op cit p 8